

موقف من يونس بن حبيب

للككتور محمود حسني محمود

(الجامعة الأردنية)

- ١ -

هو (١) أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي البصري . يكاد أغلب الذين ترجموا له أن يتفقوا على أنه واحد من الموالى العرب ، ولكنهم حاروا في من كان مولاه ، فقيل (٢) أنهم بنو ضبة ؛ وقيل (٣) بنو ليث بن بكر ، وقيل (٤) بلال بن هرمي من بني ضبيعة بن بجالة . أما صاحب « معجم الأدباء » فقد رأى أنه ضبي نسبة صريحا ، ولكنه عاد وروى أنه مولى بني ليث ؛ قال (٥) : « أبو عبد الرحمن الضبي وقيل الليثي بالولاء » . وكان نسب يونس يحير أبا الحسن الخزاز الذي لم يستطع أن يتحقق من الأمر ، فكان يقول (٦) : « لا أدري هو مولى أم لا » . وفي جميع الأحوال فإن يونس يبقى عربي الأصل . ولم يذهب أحد الى أنه غير ذلك سوى صاحب «مفاخر»

١ - طبقات المفسرين : ج ٢ / ٣٨٥ . بغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

٢ - وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٤ . الفهرست : ص ٧٩ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

٣ - وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٤ . معجم الادباء ج . ٢ / ٦٤ . الفهرست : ص ٧٩ .

٤ - وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ .

٥ - ج ٢٠ / ٦٤ .

٦ - الفهرست : ص ٧٩ .

العجم « الذي ادعى (٧) أنه أعجمي الأصل ، مفتخرا بذلك ، توهما (٨) منه أنه من اهل الجبل، بينما هو في الحقيقة من مواليد جبل (٩) : القرية الواقعة (١٠) بين النعمانية وواسط ، ولعل لفظ « جبل » هو الذي اوهمه انه من اهل الجبل .

وقد قدر الله ليونس أن يعيش عمرا مديدا ، اختلفت الروايات (١١) في تقديره ، وتراوح فيها بين ٧٨ سنة الى ١٠٢ من السنين ، ولكن الاغلب أنه عاش ٨٨ عاما ، او قريبا منها ، وأنه توفي سنة ١٨٢ هـ .

ويبدو أنه فرغ حياته تماما من أجل العلم ، ولم تشغله شواغل الدنيا « فلم (١٢) يتسّر ، ولم يقزوج » ، و « (١٣) لم تكن له همة الا طلب العلم ، ومحادثة الرجال » ولعلّ عدم انشغاله بشيء غير العلم يسّر عليه جهدا في امتلاك حصيلته العلمية التي وصل اليها ، وامكنه من الحفاظ عليها حتى قبل فيه قول ظريف : « (١٤) مثل يونس كمثل كوز ضيق الراس ، لا يدخله

٧ - الفهرست : ص ٧٩ .

٨ - تاريخ الادب العربي (بروكلمان) : ج ٢ / ١٣٠ .

٩ - وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ . انباء الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

١٠ - معجم البلدان : ج ٢ / ١٠٢ . قال ياقوت : « بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب

الشرقي كانت مدينة واما الآن فاني رايتها مرارا وهي قرية كبيرة ، قال البحرني :

لئن اوحشتي جبل وخصاصها لما انستني واسط وقصورها » .

١١ - ولعل اصحها تلك التي وردت على لسان الجاحظ في حديثه للبرد، وتفيد بان يونس توفي

سنة ١٨٢ هـ وهو ابن ثمان وثمانين (مراتب النحويين ص ٢١ وانظر الحيوان ج ٥ /

٥٩١) . وهذه الرواية تتطابق مع ما ورد على لسان اسحق بن ابراهيم الموصلي في

الفهرست ص ٧٩ .

اما في : البداية والنهاية : ج ١٠ / ١٨٤ . فقد ورد انه توفي عن ٧٨ سنة . وفي طبقات

المفسرين ج ٢ / ٢٨٦ وبغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ توفي عن تسعين . وفي احسدى

روايات الانباء : ج ٤ / ٧١ انه جاوز المائة .

١٢ - انباء الرواة : ج ٤ / ٧١ . طبقات المفسرين : ج ٢ / ٢٨٦ . بغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ .

١٣ - الفهرست : ص ٧٩ . وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٥ . انباء الرواة : ج ٤ / ٧١ .

١٤ - طبقات النحويين واللغويين : ص ٥١ . انباء الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

شيء إلا بعسر ، فإذا دخله لم يخرج منه « أي لا ينسى . وبقي يونس يفيد من علمه الى أن (١٥) « تفرغ من الكبر »، إذ وصل عمراً لا احد يرجو أن يصل اليه ، فقد « (١٦) دخل المسجد يوماً وهو يهادي بين اثنين من الكبر، فقال له رجل كان يتهمه على مودته : بلغت ما أرى يا أبا عبد الرحمن ، قال : هو الذي ترى ، فلا بلِّغته . »

وكان يونس ذا نظرة تأملية ، وصاحب رأي في بعض الجوانب الحياتية ، فكان يقول : « (١٧) ثلاثة والله اشتهي أن أمكن من مناظرتهم يوم القيامة : آدم، عليه السلام، فأقول له : قد مكّنك الله من الجنة وحرّم عليك شجرة ، فقصدت لها حتى القيتنا في هذا المكروه ؟ . ويوسف، عليه السلام، أقول له : كنت بمصر ، وإبوك عليه السلام بكنعان ، بينك وبينه عشر مراحل ، يبكي عليك ، لم لم ترسل اليه : إني في عافية ، وتريحه مما كان فيه من الحزن ؟

وطلحة والزبير أقول لهما : عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، بايعتماه بالمدينة ، وخلصتماه بالعراق ، لم ؟ أي شيء أحدث ؟ »

وللشباب والأحباء عنده مكانة غالية حين يقول (١٨) :

شيطان لو بكت الدماء عليهما عينساي حتى يؤذنا بذهاب
لم ييلغا المعشار من حقيهما، شرح الشباب وفرقة الأحباب

وللعلم عنده مكانة لا تدانيها مكانة ، فكان يقول : « (١٩) إن علمك

١٥ - الفهرست : ص ٧٩ . انباه الرواة : ج ٤ / ٧١ .

١٦ - مراتب النحويين : ص ٢١ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

١٧ - أخبار النحويين البصريين : ص ٢٩ .

١٨ - شذرات الذهب : ج ١ / ٣٠١ .

١٩ - الحيوان : ج ١ / ٦١ .

من روحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكان الروح ، وضع مالك بمكان البدن » .

تثقف يونس ثقافة واسعة تمثل ثقافة عصره ؛ وكان متجلبا في اكثر من علم واحد : فهو عالم بالانساب ، يُضرب به المثل في الدراية بهذا العلم والتبكن منه • قال الجاحظ في حديثه عن الحمام : « (٢٠) ووصف الهذيل المازني مثنى بن زهير وحفظه لانساب الحمام ، فقال : « والله لهو انسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامه للناس ، بل هو انسب من ابي بكر الصديق رضي الله عنه ! لقد دخلت على رجل اعرف بالامهات المنجبات من سُحيم بن حفص ، واعرف بما دخلها من الهجنة والإقراف من يونس بن حبيب » .

وهو قصاص من اولئك الذين كان الناس يتحلقون حولهم في المساجد ويستمعون الى ما يروونه من احاديث واخبار • ويبدو أن الموضوع السذي كان يدور حوله القصاص — كما يبدو من خلال ذكر (٢١) الجاحظ لهم — هو تفسير آيات القرآن الكريم ، فبرع يونس بين المفسرين ، (٢٢) وترجم له في طبقاتهم ، ولا سيما وقد ألف كتابا أسماه « (٢٣) معاني القرآن » • ولعل يونس في تأليفه هذا الكتاب هو الذي أوحى الى تلامذته : ابي

٢٠ — الحيوان : ج ٢ / ٢١٠ .

٢١ — انظر البيان والتبيين : ج ١ / ١٩٢ — ١٩٤ .

٢٢ — انظر : طبقات المفسرين : ج ٢ / ٢٨٥ — ٢٨٦ .

٢٣ — انظر : الفهرست : ص ٧٩ . وقد خلط صاحب معجم الادباء (ج ٢٠ / ٦٧) بين معاني القرآن و « النوادر » فذكره باسم « معاني القرآن الكبير » « معاني القرآن الصغير » مع ان كتاب المعاني كتاب واحد ، اما النوادر فالف فيها كتابين : الكبير والصغير كما سيرد فيما بعد .

عبيدة (٢٤) والكسائي (٢٥) والأخفش (٢٦) والفراء (٢٧) أن يسلكوا مسلكه ويؤلفوا كتباً في الموضوع نفسه تحمل اسم الكتاب الذي ألفه . وله آراء (٢٨) تفسيرية تناقلتها الكتب بعده .

وهو ناقد أدبي مؤهل بكل متطلبات النقد ، كان «٢٩» عالماً بالشعر ، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه ، عارفاً بطبقات شعراء العرب ، حافظاً لأنسابهم « ، مرجعاً لمن كان الأدب يشكل جزءاً من تفكيرهم وهمومهم ؛ قدم (٣٠) عليه جعفر بن العباس من عند الخليفة المهدي وقال له : أنا وأمرؤنمنا اختلفنا في هذا البيت :

والشيبُ ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجاتيبيهِ نهار
فما الليل والنهار ؟ فقال يونس : الليل ، الليل الذي تعرف والنهار . النهار الذي تعرف ، فقال جعفر : زعم المهدي أن الليل فرخ الكروان ، والنهار فرخ الحبارى . فقال أبو عبيدة في البيت ما قاله يونس . والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة .

وكان الشعراء يذهبون إليه يستأنسون برأيه ، قبل أن يذيعوا أشعارهم للناس ؛ حتى أن بعضهم كان يتخذ من رأيه القول الفصل ، فأما أن يظهر شعره وأما أن يلتقيه ولا يلتفت إليه . قدم (٣١) عليه مروان بن

٢٤ - انظر انباء الرواة ج ٣ / ٢٥٦ .

٢٥ - انظر نزعة الالباء ص ٦٠ .

٢٦ - انظر انباء الرواة ج ٢ / ٤٢ .

٢٧ - انظر : نزعة الالباء ص ٨١ .

٢٨ - انظر : الحيوان ج ٥ / ٢٤٠ ، وطبقات فحول الشعراء ص ٥٤ (مطبعة المدني - القاهرة - ١٩٧٤) .

٢٩ - معجم الادباء ٢٠ / ٦٤ .

٣٠ - وفيات الاعيان ٧ / ٢٤٧ .

٣١ - الموشح ص ٥٠ معجم الادباء ج ٢٠ / ٦٦ .

أبي حفصة ، وقال له : لقد قلت شعرا أعرضه عليك، فإن كان جيدا أظهرته،
وإن كان رديئا سترته ، وأنشده :

طرقتك زائرة فحيّ خيالها

قال : فقال له : يا هذا ، اذهب فأظهر هذا الشعر ، فأنت والله
فيه أشعر من الأعشى ، يريد في قوله (٣٢) :

رحلت سمية غدوة أجمالها

فقال له مروان : قد سؤتني وسررتني ، فأما الذي سررتني به
فلأرتضائك الشعر ، وأما الذي سؤتني به فلتقديمك إياي على الأعشى ،
قال : نعم ، إن الأعشى قال :

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبحت حبة قلبها وطحالها .

والطحال لا يدخل في شيء الا أفسده ، وأنت لم تقل ذلك .

وكان يستطيع ان يميز رواية الشعر صدقتها من كذبها ؛ فقد روي (٣٣) .

لأبي عمرو بن العلاء — بحضور يونس وأبي عبيدة — ان الوليد بن عبد الملك
لام العجاج لقوله شعراً في عمر بن عبيد الله بن معمر أفضل من ذلك الذي
قاله فيه ، فقال يونس لأبي عبيدة بعد سماع الرواية : اتصدق بهذا ؟ ما
كان من هذا شيء قط ، ولا كان الوليد يحسنه . قال عمر بن شبة : ولا
أحسب يونس الا قد صدق ؛ كان الوليد لحانا ، وكان عبد الملك يعتذر من
ذلك ، ويقول : « شغلنا حب الوليد عن تأديبه ، لكن هذا سليمان فاسألوه
عما شئتم » .

وكان الشعراء يحفلون بقوله ويبنون عليه شعراً ، فقد (٣٤) بنى

٣٢ — ديوان الأعشى ص ٢٧ قصيدة رقم ٢ .

٣٣ — الموضع ص ١٩٦ .

٣٤ — نوفايات الاميان ج ٧ / ٢٤٦ .

منصور النمري على قول يونس : « ما بكت العرب على شيء في أشعارها
كبكائها على الشباب ، وما بلغت كنهه » ؛ فقال من جملة قصيدة يمدح
بها هارون الرشيد :

ما كنت اوفي شباي كنه غرته حتى انقضى فاذا الدنيا له تبسح
وليونس قول ذائع يدل على دقة حكمه ومعرفته بطبيعة الشعر ، وما
يتحكم في جودته ؛ فقد سأل ابن سلام عن اشعر الناس ، فقال : « (٣٤) لا
اومىء الى رجل بعينه ولكني اتول : امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا
رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب » . وكان يقول عن الشعر :
« (٣٥) انه كالسراء والشجاعة والجمال ، لا ينتهي فيه الى غاية » .

وكان للشعراء عنده مكانة عالية ، وعلاقة وثيقة ؛ ولعل امتن هذه
العلاقات تلك التي كانت بينه وبين المعاج ورؤية ، حتى انها كانتا عنده
« (٣٦) اشعر اهل القصيد » . وقد (٣٧) اختص بالرواية عن رؤية
وتعصب له ؛ وكان يهب للدفاع عنه اذا ما حاول احد ان ينال منه ؛
فهذا (٣٨) شبيل بن عزرة يدخل على ابي عمرو بن العلاء — ويونس حاضر
— فيبدي استغرابه من ان رؤية لا يعرف اشتقاق اسمه ، فيثب يونس ،
ثم يجلس بين يدي شبيل ويقول له : علك تظن ان معد بن عدنان كان افصح
من رؤية ؟ فانا غلام رؤية . فما الرؤية والرؤية والرؤية والرؤية ؟

٣٤ — معجم الادباء ج ٢٠ / ٦٥ ، خزنة الأند ج ١ / ١٧٥ .

٣٥ — طبقات نحول الشعراء ص ٦٦ (مطبعة المدني — القاهرة ١٩٧٤) .

٣٦ — خزنة الأند ج ١ / ٩٠ .

٣٧ — الرواية والاستشهاد باللغة ص ١١ .

٣٨ — مراتب النحويين ص ٢٢ . خزنة الادب ج ١ / ٩٠ .

كان شبيل بن عزرة راوية نسابا عالما بالغريب ، وكان شاعرا ، نشئ سبعين سنة ثم
صار بعد ذلك خارجيا ويكنى ابا عمرو ، مات بالبصرة . انظر مراتب النحويين ص ٢٢ .

(الخامسة مهموزة فقط) ، فاذا بشبيل يغضب ويقوم ، واذا بأبي عمرو ينكر على يونس تصرفه مع رجل شريف قصد مجلسه ؛ فيعتذر يونس قائلا : ما تمالكت اذ ذكر رؤبة ان قلت ما قلت .

غير ان شهرة يونس تأتي من علمه باللغة والنحو، إذ (٣٩) « كان اغلب عليه » يعرف به فيقال (٤٠) « يونس النحوي » تمييزاً له عن غيره ممن عرفوا بهذا الاسم • وقد سمع (٤١) اللغة عن العرب، شأنه شأن أوائل النحاة الذين كانوا يستقون المادة النحوية من أفواه الاعراب في البادية ؛ وآلف (٤٢) في اللغة كتاب « اللغات » و « النوادر الكبير » و « النوادر الصغير » و « الأمثال » .

أما النحو فأخذه عن مجموعته، أولهم (٤٣) حماد ابن سلمة ، مع انه كان اسن (٤٤) منه ، وكان يونس يفضلته (٤٥) ؛ ولكن أكثرهم تأثيرا فيه ابا عمرو بن العلاء الذي يبدو انه كان ملازما اياه ، يكتب له حتى عُدَّ من كتَّابه (٤٦) . واثر ابي عمرو في علم يونس ظاهر في ميدان الشعر ، والرواية ، والنقد ، واللغة والنحو ؛ وكان يونس يجلُّ استاذه ويحترم رايه قائلا : « (٤٧) لو كان احد ينبغي ان يؤخذ بقوله كله في شيء واحد ، كان ينبغي لقول ابي عمرو بن العلاء في العربية ان يؤخذ كله ، ولكن ليس احد الا وانت آخذ من قوله وتارك » .

٣٩ - مراتب النحويين ص ٢١ .

٤٠ - انظر : وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ ، خزائن الادب ج ١ / ٩٠ . شذرات الذهب ج ١ / ٣٠١ .

٤١ - اخبار النحويين ص ٢٧ .

٤٢ - انظر : الفهرست ص ٧٩ .

٤٣ - طبقات النحويين واللغويين ص ٥١ .

٤٤ - نزعة الالباء : ص ٤٢ .

٤٥ - المصدر نفسه ص ٤٢ .

٤٦ - اخبار النحويين البصريين ص ٢٧ .

٤٧ - طبقات فحول الشعراء ص ١٦ (المنى - القاهرة ١٩٧٤ م) وانظر : نزعة الالباء ص ٣١ .

وقد شاهد يونس مرحلة متطورة في ميدان النحو ، توضحت فيها أسس النحو ، وثبتت فيها بعد في كتاب سيبويه • وتعد هذه المرحلة قفزة واسعة إذا ما قيست بتلك التي شهدتها ابن ابي اسحق • سئل (٤٨) يونس عن ابن ابي اسحق وعلمه فقال : هو والبحر سواء ؛ أي هو الغاية . قال : فأين علمه من علم الناس اليوم ، لو لم يكن في الناس اليوم أحد لا يعلم الا علمه يومئذ لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظره لكان أعلم الناس .

وقد أسهم يونس في تطور النحو مساهمة فعالة ، وكان له شخصيته الواضحة وأثره البين حتى قيل : « (٤٩) له قياس في النحو ومذاهب ينفرد بها » . وقد خصص معظم حياته للتدريس ، فكان لسه بالبصرة حلقة (٥٠) ينتابها طلاب العلم وأهل الأدب ، وفصحاء الاعراب ، ووفود البادية ؛ ودرس عليه علماء مشاهير سنوات طويلة 8 فاختلف (٥١) اليه ابو عبيدة اربعين سنة ، وابو زيد عشر سنين ، وخلف الأحمر عشرين سنة ، وأخذ عنه قطرب ، (٥٢) ومحمد (٥٣) بن سلام الجمحي ، والكسائي ، والفراء .

ويكفيه ان سيبويه أخذ عنه فأكثر (٥٤) ، ونقل عنه نقولا صدق فيها

٤٨ - طبقات النحويين واللغويين ص ٣١ .

٤٩ - اخبار النحويين البصريين ص ٢٧ وانظر انباه الرواة : ٧٠/٤ .

٥٠ - انظر : الفهرست ص ٧٩ ، وانباه الرواة : ٧٠/٤ .

٥١ - وفيات الاعيان : ٢٤٥/٧ . معجم الالباء : ٦٥/٢٠ . انباه الرواة : ٧١/٤ .
شذرات الذهب : ٣٠١/١ .

٥٢ - انظر : مراتب النحويين ص ٦٧ .

٥٣ - انظر : مراتب النحويين ص ٦٧ .

٥٤ - اخبار النحويين البصريين : ص ٢٧ . انباه الرواة : ٧٠ / ٤ ، طبقات المفسرين
ج ٢٨٦/٢ .

جميعا ، وشهد يونس على صدقتها شهادة رفعت من ذكر سيبويه وكتابه ،
نقد (٥٥) قال حين ذكر سيبويه عنده : أظن هذا الغلام يكذب على الخليل ،
فتبيل له : قد روى عنك أشياء كثيرة ، فانظر فيها ، فنظر فيها ، فقال :
صدق في جميع ما قال ، هو قولي .

وقد ذكر سيبويه يونس وروى عنه في نحو ٢٠٠ موضع (٥٦) من
مواضع الكتاب، بحيث كان يتكرر (٥٧) اسمه في الصفحة الواحدة أحيانا أكثر
من مرة واحدة .

وقد روى يونس في الكتاب لغة كثيرة عن العرب ، وكان مفتاح رواياته
عنهم يختلف من رواية الى أخرى ، فكان يفتح روايته بـ (٥٨) « أن قوما من
العرب ... » ، (٥٩) « أن ناسا يقولون ... » ، (٦٠) « أن ناسا من
العرب ... » ، (٦١) « أن بعض العرب الموثوق بهم ... » ، (٦٢) « أن بعض
العرب ... » ، (٦٣) « أن قوما ... » ، (٦٤) « أن العرب
تقول ... » ، (٦٥) « أنه سمع أعرابيا ... » ، (٦٦) « أنه سمع

١

-
- ٥٥ - اخبار النحويين البصريين : ص ٢٧ .
٥٦ - انظر : سيبويه امام النحاة : ص ٩٠ .
٥٧ - انظر : كتاب سيبويه ج ١ / ٤٢٨ ذكر اربع مرات ، وج ٢ / ٤١٠ ، ٤١١ ، وانظر :
ج ٢ / ١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢٤٧ ، ٣٦١ ، ٤٤٢ ، ٦٢٢ .
٥٨ - انظر : الكتاب ج ١ / ٢٨٩ .
٥٩ - الكتاب ج ١ / ٤١٦ ، ج ٢ / ٤١٠ .
٦٠ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٧ ، ١١٢ ، ج ٢ / ٢٤٤ .
٦١ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٣٧ .
٦٢ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢١٣ .
٦٣ - الكتاب ج ٢ / ١١٩ .
٦٤ - الكتاب ج ٢ / ١٤٢ ، ج ٢ / ٤٢٥ .
٦٥ - الكتاب ج ٢ / ٤١١ .
٦٦ - الكتاب ج ٢ / ١٢٥ .

العرب ... » ، (٦٧) « أن من العرب من يقول ... » .

وقد روى عن رؤية (٦٨) من الشعراء ، والفـرزـدق (٦٩) ،
وجـرير (٧٠) ، والأسود (٧١) بن يعفر . وروى عن أبي عمرو بن
العلاء، وكان طريق سيبويه إليه ، وروى عن ابن (٧٣) أبي اسحق .
وتأتي شخصيته النحوية من خلال الكتاب في الدرجة الثانية (٧٤) بعد
شخصية الخليل ، وكثيرا ما كان يقرن اسمهما في رواية أو رأي . ومما
يلفت النظر في رواية سيبويه عنهما . حين ذكرهما معا ، انه كان يترجم
عليهما اذا سبق ذكر يونس ذكر الخليل . اما اذا سبق ذكر الخليل يونس
ترجم على الخليل وحده . ثم اتبع الترجمة عليه ذكر يونس، فهو يقول في
الموضع الأول مثلا : (٧٥) « وزعم يونس والخليل، رحمهما الله، أن الدرهم
ليست نكرة » ، (٧٦) « ولم يجز يونس والخليل — رحمهما الله — كما غلمانا
لك » ، (٧٧) « هذا قول يونس والخليل رحمهما الله » . وفي الثاني
يقول مثلا : (٧٨) « واذا لم تلحق الألف قلت، وازيد، إذا لم تضيف ، ووازيد،

٦٧ — الكتاب ج ١ / ٢٦٢ ، ج ٢ / ٦٥ .

٦٨ — انظر الكتاب : ج ١ / ٥١ ، ج ٢ / ١٥٢ ، ج ٣ / ٢٠٤ ، ٥٦٥ .

٦٩ — انظر الكتاب ج ٢ / ٧٢ .

٧٠ — انظر الكتاب : ج ١ / ٢٧٨ .

٧١ — انظر الكتاب : ج ٣ / ١٣٥ .

٧٢ — انظر الكتاب : ج ١ / ٢٨٧ ، ج ٢ / ١١٢ ، ١٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٩ ، ج ٣ / ١٠١ ، ٢٤٤ ،

٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٤٥٧ ، ٥٦٦ .

٧٣ — انظر الكتاب : ج ٣ / ٢٤٢ .

٧٤ — كتاب سيبويه وشروحه ص ٣١ .

٧٥ — الكتاب : ج ١ / ٤٢٨ .

٧٦ — الكتاب : ج ٢ / ١٥٩ .

٧٧ — الكتاب : ج ٢ / ٢٢٨ .

٧٨ — الكتاب : ج ٢ / ٢٢١ .

إذا أضفت ، وان شئت قلت وازيدي، واللاحق وغير اللاحق عربي فيما زعم الخليل رحمه الله ويونس « . وفي باب النذبة (٧٩) « وذلك قولك: وارجلاه، ويا رجلاه، وزعم الخليل رحمه الله ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال « . ويقول: (٨٠) « زعم الخليل — رحمه الله — ويونس جميعا أنه يجوزهما أتاني غير زيد وعمر « . وفي اعراب الضمير بعد لولا: (٨١) « وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس « . ولعل ما سلكه سيبويه ازاء الخليل ويونس يذكرني بالاعرابي الذي صلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دعا الله قائلا: (٨٢) « اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا احدا » فدهش النبي وقال له: « لقد ضيقت واسعا » .

ومفاتيح رواية سيبويه عن يونس كثيرة منها: (٨٣) « حدثنا يونس . . . » ، (٨٤) « اخبرنا يونس . . . » ، (٨٦) « انشدنا يونس . . . » وفي اغلب الروايات: (٨٧) « زعم يونس . . . » ، (٨٨) « وإما يونس فيقول . . . » ، (٨٩) « وهذا قول يونس . . . » ونقل سيبويه عنه ابوابا كاملة في النحو والصرف ، إما عنه (٩٠) وحده ، وإما عنه وعن الخليل (٩١)

-
- ٧٩ — الكتاب : ج ٢ / ٢٢٧ .
 ٨٠ — الكتاب : ج ٢ / ٢٤٤ .
 ٨١ — الكتاب : ج ٢ / ٢٧٣ .
 ٨٢ — بطل الابطال ص ٦١ .
 ٨٣ — انظر : الكتاب : ج ١ / ١٥٥ ، ٤٠٩ — ج ٢ / ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٤١٠ — ج ٢ / ٢٢٧ .
 ٨٤ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٧٦ — ج ٢ / ٢٦٧ .
 ٨٤ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٤٥٥ .
 ٨٦ — انظر : الكتاب : ج ١ / ١٢٠ ، ٢٧٨ .
 ٨٧ — انظر : الكتاب : ج ١ / ٢٨٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ج ٢ / ٧٧ ، ٤١١ ، ١٩٩ ، ج ٢ / ١٣٥ ، ٤٢٥ ، ٢٤٩ .
 ٨٨ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٧٦ .
 ٨٩ — انظر : الكتاب : ج ١ / ٤٣٣ .
 ٩٠ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٤١٧ — ٤١٨ ، ج ٢ / ٤٢٣ — ٤٢٤ .
 ٩١ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢١٢ — ٢١٤ ، ٢٢٨ .

جميعا .

ويعتر سيبويه في كتابه برأي يونس ويعتد به ، ويثق ، فهو يعود اليه ويساله كلما اشكل عليه ، يقول في باب ما ينتصب على التعظيم او المدح : « (٩٢) وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمد لله رب العالمين) فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية » ، ويقول في باب اختلاف العرب في الاسم المعروف الغالب اذا استفهمت عنه بمن : « (٩٣) وسألت يونس عن : رأيت زيدَ بنَ عمرو ، فقال : أقول : من زيدَ بنَ عمرو ، لانه بمنزلة اسم وأحد ؛ وهكذا ينبغي اذا كنت تقول : يا زيدَ بنَ عمرو ، وهذا زيدُ بنُ عمرو ، فتستط التثوين » . ومواطن (٩٤) أسئلته له كثيرة .

وكان يتخذ من رواية يونس تصديقا لرواية نحوي آخر ؛ فهو يتول : « (٩٥) وزعم أبو الخطاب ان العرب الموثوق بهم يقولون : انا هذا ، وهذا انا . . . وحدثنا يونس ايضا تصديقا لقول ابي الخطاب . ان العرب تقول : هذا انت تقول كذا وكذا ، لم يرد بقوله : هذا انت ، ان يُعرفه نفسه ، كأنه يريد ان يعلمه انه ليس غيره ، هذا محال ، ولكنه اراد ان ينبهه ، كأنه قال : الحاضر عندنا انت ، والحاضر القائل كذا وكذا انت .

واحيانا قد لا يطمئن الى قول نحوي فيلجأ اليه ، فعنده الخبر اليقين . يقول : « (٩٦) وزعم عيسى بن عمر ان ناسا من العرب يقولون : إذن أفعلُ ذاك ، في الجواب ؛ فأخبرت يونس بذلك ، فقال : لا تُبعدن ذا ، ولم يكن ليروى إلا ما سمع ، جعلوها بمنزلة هل وبلى » .

٩٢ - الكتاب : ج ٢ / ٦٣ .

٩٣ - الكتاب : ج ٢ / ٤١٤ .

٩٤ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٣٦ . ج ٣ / ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٤٤٢ .

٩٥ - الكتاب : ج ٢ / ٢٥٤ - ٢٥٥ .

٩٦ - الكتاب : ج ٢ / ١٦ .

ولم تتوقف الثقة بيونس الى هذا الحد ، وانما بلغت اتساعا بحيث
اتخذ سيبويه من قوله دعامة يؤيد بها مذهبه ؛ فقد رأى سيبويه رأيا ثم
بدا وكأنه يشعر بعدم الطمأنينة الى ما رآه، فدعمه بقول ليونس لتهدا به
نفسه، قال : « (٩٧) وأما يا تميمُ اجمعون فأنت فيه بالخيار ، إن شئت
قلت : اجمعون . وإن شئت قلت : اجمعين؛ ولا ينتصب على أعني ، من
قبل أنه محال ان تقول أعني اجمعين ؛ ويدلك على ان اجمعين ينتصب
لأنه وصف لمنصوب قول يونس : المعنى في الرفع والنصب واحد » .

غير ان الطريقة التي كان سيبويه يذكر بها يونس وروايته تؤهم
وتُضلل ؛ إذ يصعب على الباحث بسببها ان يميز بين ما هو رواية محضة
ليونس، وما هو رواية وراي في آن واحد . ولعل هذه الطريقة هي التي
أوقعت النحاة المتأخرين ، وجعلتهم ينظرون الى رواية يونس على انها
رواية محضة، دون أن يلتفتوا او ينتبهوا الى انها في احيان كثيرة رواية وراي
معاً . وقد وقع السيرافي، أشهر شراح الكتاب، في حيرة حين اعترضه قول
سيبويه عن يونس في باب الندبة : « (٩٨) وأما يونس فيلحق الصفة
الالف فيقول : وأزيد الظريفاه ، واجمجتني الشاميتيناه » «فقال (٩٩) : ندبة
الصفة قول يونس والكوفيين ، والذي حكاه سيبويه عن يونس لست ادري
إلحاق علامة الندبة له من قياس يونس ، او مما حكاه عن العرب فنحتج
له به » .

وهذا «(١٠٠) باب ما لا يعمل فيه ما قبله من الفعل الذي يتعدى الى
المفعول ولا غيره »، يتحدث فيه سيبويه عن المواطن التي لا يعمل فيها
المتعدي فيما بعده ، ويطلب في التفصيل والتوضيح، بينا ان الاسم بعد هذا

٩٧ - الكتاب ٢ / ١٨٤ .

٩٨ - الكتاب ٢ / ٢٢٦ .

٩٩ - حاشية الكتاب ٢ / ٢٢٦ .

١٠٠ - الكتاب ١ / ٢٢٥ .

الفعل قد يأتي مرفوعا وقد يأتي منصوبا ؛ كل ذلك في أسلوب يُوهم المرء أن كل ما يقوله من رفع ومن نصب هو له ، ولكنه يفاجننا في نهاية الصفحة الرابعة بقوله « والرفع قول يونس » ، فلا يدري أهو الرفع الذي تحدث عنه في الفقرة التي ذكر يونس فيها ، أم الرفع في كل ما ورد في هذا الباب ! ومن يتمعن تماما في السياق العام للباب يجد أن الرفع كله ليونس ، إذ يبدو أن كل ما مثل سيبويه به يقوم على موقف يونس ، وإن كنت لا أجزم بأن كل ما جاء به سيبويه من أمثلة هو ليونس ، ولكن يكفي أن يفهم أن مذهب الرفع الذي قام عليه معظم الباب هو مذهب يونس .

وحسب فهمي للامر وتصوري إياه ، فأنني لا أستطيع أن أفهم أن موقف يونس مما يرويه عن العرب كموقف أبي زيد مما يرويه ، أو موقف الأصمعي مثلا مما يرويه ؛ ذلك أن أبا زيد والأصمعي راويان للغة فحسب ، بينما يونس بن حبيب راوية ونحوي ، ولكنه نحوي قبل أن يكون راوية . فإذا ما روى فان ما يرويه لا يكون في معظمه إلا لبيان موقف نحوي ، أو استنباط موقف نحوي ، أو التدليل على موقف نحوي اتخذه ، وذلك على الرغم من أن سوق سيبويه لرواية يونس يوهم أنه يروي رواية دون أن يتخذ من هذه الرواية موقفا نحويا . فيونس تعد معظم حياته للدرس النحوي ، ولترسيخ القواعد النحوية في ضوء ما بين يديه من مادة لغوية ؛ فإذا قال سيبويه : « (١٠١) وحدثنا يونس أن بعض العرب يقول : يا أمّ لا تفعلني ، جعلوا هذه الهاء بمنزلة هاء طلحة إذا قالوا يا طلح أقبل . . » فكيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رايا وموقفا ؟ إنه يقيس في هذا القول ويعلل . وكيف يكون قول سيبويه عن يونس في باب النداء : « (١٠٢) ويقوّي ذلك كله أن يونس زعم أنه سمع من العرب من يقول : يا فاسق الخبيث ، يدلل على أن

١٠١ - الكتاب : ٢ / ٢١٢ .

١٠٢ - الكتاب : ٢ / ١٩٩ .

كل منادي مضموم هو معرفة » . كيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رايًا يُلحج من سياق الكلام ؟ . بل كيف يكون رواية ما ينسب إلى يونس في قول سيوييه : « (١٠٣) وحدثنا بذلك يونس وعيسى جميعاً أن بعض العرب الموثوق بعربيته يقول : ما مررت بأحد إلا زيداً » وقولاه : « (١٠٤) وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون : مالي إلا أبوك احد » . كيف يكون ذلك رواية ليونس مع أنه يروي هنا عن العرب الموثوق بهم : فكيف يكون هذا القول رواية ولا يكون رايًا، ما دام صاحب القول نحويًا أولاً وقبل كل شيء ، وما دام يروي عن عرب موثوق بهم ؛ والنحوي يتصيد ما يرويه عن الموثوق بهم تصيداً ليبنى عليه رايًا وموقفاً نحويًا .

ومع أن يونس ذو شخصية واضحة بارزة تمثل في معظم صفحات الكتاب وتتلازم مع الخليل في مواضع عدة، إما رواية — وهي في معظمها رأي كما أسلفت — وإما رايًا صريحاً صرح به سيوييه • إلا أن هذه الشخصية تكاد لا تبين بوضوح، أو أن هذه الشخصية لا تأخذ المكانة التي تستحقها في معظم كتب النحاة المتأخرين ، بينما تظهر فيها شخصية الأخصى والمازني والجري وابن السراج والزجاج بشكل أوضح وأبرز ، مع أن فرقاً كبيراً بين هذا وهؤلاء . لا بد أن يعتريك التساؤل والاستغراب حين تجد أن يونس لا يذكر في شرح ابن عقيل مثلاً ، أو شرح المفصل ، أو حاشية الصبان ، أو شرح الأشموني، أو مغني اللبيب، أو شرح التصريح، أكثر من ثلاثين مرة في أكثرها إنصافاً له ، مع أنه ذكر أكثر من مائتي مرة — كما أسلفت — في الكتاب • ولقد أوهبت هذه الكتب الدكتور شوقي ضيف أن يونس لم يكن له دور في علم النحو ، فاستخلص نتيجة، بعد أن مرّ عليه مروراً خاطفاً، فقال : « (١٠٥) وعلى هذا النحو وقع يونس بعيداً عن تطور

١٠٣ - الكتاب ٢/ ٢١٩ .

١٠٤ - الكتاب ٢/ ٢٢٧ .

١٠٥ - المدارس النحوية ص ٢٩ .

نظرية النحو على شاكلة ما انتهت اليه في الكتاب عند سيبويه والنحاة الذين يوضعون بحق في تطورها، هم ابن أبي اسحق وعيسى بن عمر، ثم الخليل بن أحمد، وسيبويه . فهو يرى أن ابن أبي اسحق وعيسى بن عمر أهم من يونس وأكثر تأثيراً في مجال النحو ؛ ولو عاد الدكتور شوقي ضيف الى كتاب سيبويه، الذي يعدّه الثمرة الناضجة لتطور نظرية النحو، وتتبع مساهمة يونس فيها، لكان له موقف آخر مختلف ، ولكنه اكتفى بالعودة الى تلك الكتب المتأخرة التي طمست شخصية يونس واثره في النحو في حد بعيد .

ولعلّ عدم وضوح شخصية يونس وإنصافها وإعطائها ما تستحقه من حق ضائع يعود الى سببين، الأول : ما سلفته ، وهو الطريقة التي كان سيبويه يتبعها في ذكر يونس وروايته ، إذ كانت تؤدي الى اللبس والتضليل، بحيث يصعب على الباحث أن يميز بين ما هو رواية محضّة، وما هو رواية وراي ؛ فترك المتأخرون البحث في هذا الأمر ولجأوا الى الحل الأسهل، وهو أن ينظروا الى كل ما رواه يونس على أنه رواية محضّة ، وأن ينظروا الى الراي الذي بني على ما رواه يونس على أنه راي لسيبويه . والسبب الثاني : — وهو اشدّ وقعا — أن النحاة المتأخرين وّرّعوا الكثير من آرائه التي صرح بها سيبويه على اولئك النحاة الذين وافقوه فيها ، فنسبوا بعضها الى سيبويه وبعضها الى البصريين تعميماً ، وبعضها الى الكوفيين .

فما نسب الى سيبويه وهو ليونس والخليل، حكم الاسم المضاف في المنادى حينما يكرر، قال سيبويه : ٢ (١٠٦) هذا باب يكرر فيه الاسم في حال الاضافة ويكون الاول بمنزلة الآخر ، وذلك قولك : يا زيدَ زيدَ عمرو ، ويا زيدَ زيدَ أخينا ، ويا زيدَ زيدَنا . زعم الخليل، رحمه الله، ويونس أن هذا

كله سواء كوهي لغة للعرب جيدة » . وهذا الرأي واضح انه ليونس والخليل
وليس لسيبويه فيه إلا التوضيح ؛ وقد نُسبَ هذا الرأي الى سيبويه كل من
ابن عقيل (١٠٧) ، والأشموني (١٠٨) ، والصبان (١٠٩) .

ومما نسب اليه ايضاً رأي يونس والخليل في الضمير بعد لولا، قال
سيبويه : « (١١٠) هذا باب ما يكون مضمراً فيه الاسم متحولاً عن حاله
اذا أظهر بعده الاسم، وذلك لولاك ، ولولاي، اذا اضمرت الاسم فيه جُزَّ ،
واذا أظهرت رُفِعَ ، ولو جاء علامة الاضمار على القياس لقلت : لولا انت،
كما قال سبحانه : (لولا انتم لكانا مؤمنين) ولكنهم جعلوه مضمراً
مجروراً ؛ والدليل على ذلك ان الياء والكاف لا تكونان علامة مضمراً
مرفوعاً ؛ قال الشاعر يزيد بن الحكم :

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق من هوى

وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس « . والرأي في هذا الموضع
صريح الصراحة كلها انه ليونس والخليل، وقد نسبه الى سيبويه كل من
المبرد (١١٢) ، وابن عقيل (١١٣) ، وابن الشجري (١١٤) ، والرضي (١١٥) ،
ونسبه ابن هشام (١١٦) الى سيبويه والجمهور .

ومما نسب الى البصريين رأي يونس والخليل في ندبة النكرة ، قال

-
- ١٠٧ - انظر : شرح ابن عقيل ٢/٢١٢ .
 - ١٠٨ - انظر : شرح الأشموني ٢/٤٥٤ .
 - ١٠٩ - انظر : هاشية الصبان ٢/١٥٤ .
 - ١١٠ - الكتاب ٢/٣٧٢ - ٣٧٤ .
 - ١١١ - سبأ - آية ٣١ .
 - ١١٢ - انظر : الكامل في الألب ١/١٠٩٧ .
 - ١١٣ - انظر : شرح ابن عقيل : ٢/٦ .
 - ١١٤ - انظر : امالي ابن الشجري ١/١٨٠ .
 - ١١٥ - انظر : شرح الكافية ٢/٢٠ .
 - ١١٦ - انظر : معنى اللبيب ص ٣٦١ .

سيبويه : « (١١٧) هذا باب ما يجوز ان يندب ، وذلك قولك : وأرْجُلَاهُ ،
ويا رُجُلَاهُ * وزعم الخليل رحمه الله ويونس انه قبيح وأنه لا يقال » . وقد
نسب ابن الانباري (١١٨) هذا الرأي الى البصريين فطمس بذلك ذكر
يونس على الرغم من انه واحد من البصريين كالخليل وسيبويه .

ومما نُسب الى الكوفيين رأي يونس في جواز عود الخافض وعدمه ،
اذا كان المخفوض ضميراً ؛ فقد نسبته الى الكوفيين كلٌّ من ابن عقيل (١١٩)
وابن الانباري (١٢٠) ؛ اما الاثموني فنسبه الى يونس والكوفيــــــــــــين ،
قال : « (١٢١)

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفّض لازماً قد جُملاً

في غير الضرورة ، وعليه جمهور البصريين . . قال الناظم : (وليس)
عود الخافض (عندي لازماً) وفاقاً ليونس والاعفش والكوفيين . . . » .

ومما نسب اليهم ايضاً رأي يونس في الفصل بين المضاف والمضاف
اليه ، فقد نسبته اليهم كل من ابن الانباري (١٢٢) والازهري (١٢٣) ، بينما
نسبه الرضي اليه ، قال : « (١٢٤) وانكر اكثر النحاة الفصل بالمفعول وغيره
في السعة ، ولا شك ان الفصل بينهما في الضرورة بالظرف ثابت مع قلته
وقبحه ؛ والفصل بغير الظرف في الشعر اقبح منه بالظرف ، وكذا الفصل
بالظرف في غير الشعر اقبح منه في الشعر ؛ وهو عند يونس قياس » .

١١٧ - الكتاب ٢ / ٢٢٧ .

١١٨ - انظر الانصاف ١ / ٣٦٢ .

١١٩ - انظر : شرح ابن عقيل ٢ / ١٨٧ .

١٢٠ - انظر : الانصاف ٢ / ٤٦٣ .

١٢١ - شرح الاثموني ٢ / ٤٢٩ .

١٢٢ - انظر : الانصاف ٢ / ٤٢٧ .

١٢٣ - انظر : شرح التصريح ٢ / ٥٧ .

١٢٤ - شرح الكافية ١ / ٢٩٣ .

ويكاد يونس لا يُذكر الا بذكر آرائه التي خالفه سيبويه فيها ؛ من ذلك خلافهما في حكم جواب الشرط المضارع اذا دخلت همزة الاستفهام على الشرط في بدايته ٥ قال الزجاج : « (١٢٥) هذا باب ما جاء في التنزيل من ادخال همزة الاستفهام على الشرط والجزاء ؛ وهذه ايضا مسألة فيها اختلاف بين سيبويه ويونس ، وصورتها ان تأتني اتك، بجزم الجواب عند سيبويه ، ويونس يقول : ان تأتني آتيك، بالرفع ؛ ويقول هو في نية التقديم ، ويقدره : اتيك ان تأتني » .

ومن ذلك مخالفة سيبويه يونس في أصل لبيك (١٢٦) ، وفي تصغير هند لوستمي بها مذكر (١٢٧) ، وفي : من زيذاً وأباه ، في النصب على الحكاية (١٢٨) ، والنسبة الى نحو ملهى (١٢٩) ، وابدال نون المثني همزة نحو ضرباء الغلام (١٣٠) ، والنسبة الى مائه (١٣١) ، وردّ المحذوف في التحقير (١٣٢) .

وكتاب سيبويه، حسب نهى اياه، يتنازعه نحاة ثلاثة ، وهم الخليل ويونس وسيبويه، مرتبين — في رأيي — حسب مساهمتهم في هذا الكتاب؛ ولكن سيبويه بدت شخصيته النحوية وكأنها تفوق شخصية يونس ، بل كادت تبدو متفوقة على شخصية الخليل، وقد ناقشتها فعلا في كتب النحاة المتأخرين ٥ ولعل مرد ذلك الى تأليف سيبويه الكتاب بعد ان لطم شتات

١٢٥ — اعراب القرآن ٧٨٢/٣ .

١٢٦ — انظر : خزانة الادب ٩٢/٢ ، شرح التصريح ٢٨/٢ . والكتاب ٢٥١/١ .

١٢٧ — انظر : الخصائص ١٥٧/١ .

١٢٨ — انظر : الكتاب ٤١٣/٢ ، وشرح الاشموني ٦٤٣/٢ .

١٢٩ — انظر : شرح الاشموني ٧٢٧/٢ .

١٣٠ — انظر : حاشية الصبان ٢٢٥/٢ .

١٣١ — انظر : الخصائص ١٠٦/٢ .

١٣٢ — انظر : المصدر نفسه ٧١/٢ — ٧٣ .

القواعد النحوية وبؤبها ودلّل عليها . ولو قدّر ليونس — وأعتذر لاستعمال
لو — أن يؤلف الكتاب، وأن يتنازعه الخليل ويونس وسيبويه لتفوقست
شخصيته على شخصية سيبويه تفوقا واضحا في الكتاب وغيره، ولكانت
وضعت بجدارة في المكانة التي تستحقها . من غير أن اكون في هذا القول
متعصبا ليونس او معطيه مكانة أكثر من التي له ، كبعض الباحثين الذين
يقفون في احيان كثيرة موقف المدافع ، او المتعصب للشخصية التي يبحثون
فيها، وكان الامر يمسهم او يتعلّق بهم . ومنطلقي في موقفي هذا هو العطاء
العلمي الثرّ الذي بين يديّ ليونس من خلال الكتاب .

ولم يكن ليونس اثر في سيبويه وكتابه بصفة خاصة ، والمدرسة
البصرية بصفة عامة فحسب ، وانما كان له اثر كبير ايضا في نشأة المدرسة
الكوفية التي اتخذت من اتجاهه مساراً لها وهاديا .

نقد ساد المدرسة البصرية زمن يونس اتجاهان في النحو :

الاتجاه الاول : اتجاه متشدد في القياس والسماع عن العرب، ويمثله
ابن أبي اسحق ، وتلميذه عيسى بن عمر ؛ فكان الاول : « (١٣٣) اشد
تجريدا للقياس » وكان يطعن على العرب ، ولا يتحرّج من ان يقول للشاعر
العربي المشهور بالفصاحة : لحننت ؛ فقد لحن (١٣٤) الفرزدق في قوله:
« مولى مواليا » في بيته :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى موييسا

وقال له : كان يجب ان تقول : مولى موال .

وتبعه الثاني الذي كان لا يتحرّج من الطعن (١٣٥) على العرب

١٣٢ — طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٠ (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٤ — نزهة الالباء ص ٢٧ .

١٣٥ — طبقات النحويين واللغويين ص ٢٢ .

ايضا ، فكان يقول (١٣٦) : اساء النابغة في قوله :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتُنِي ضُئِيلَةً مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْبَاهِهَا السُّمُّ نَاعِقٌ
والوجه الصواب عنده : السم ناقعا .

اما الاتجاه الثاني فهو اتجاه متساهل في القياس ، معظّم لما يرد عن العرب ؛ ويمثله ابو عمرو بن العلاء ، وتلميذه يونس بن حبيب . وكان الأول « (١٣٧) اوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها » ، وكان (١٣٨) « اشد تسليماً للعرب » ، وكان يجوّز الواجه المختلفة التي ترد عنهم * جاءه عيسى ابن عمر (١٣٩) « فقال له : يا ابا عمر : ما شيء بلغني أنك تجيزه ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغني أنك تجيز « ليس الطيب إلا المسك » فقال ابو عمرو : نعمت يا ابا عمرو وأولج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، وليس في الأرض تميمي الا وهو يرفع » .

وكان ابو عمرو ينشد قول ذي الرمة (١٤٠) :

وظاهرٌ لها من يابس الشُّخْتِ

فقيل له : انشدتنا بابس ، فقال : يابس بابس واحد ، هذا شعر

ليست عليه مضايقة .

١٣٦ - طبقات فحول الشعراء ، ص ١٦ ، (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٧ - طبقات فحول الشعراء ، ص ١٤ (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٨ - نزعة الالباء ، ص ٢٧ .

١٣٩ - طبقات التحوين واللفويين ، ص ٢٨ . وانظر : الاشباه والنظائر ج ٢/٧٢ .

١٤٠ - للحضيب ج ١/٢٩٧ .

أما يونس فسار مساره إذ كان يجلّه ويحترم رأيه ويقول : (١٤١) «لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو ابن العلاء في العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد الا وانت آخذ من قوله وتارك » . فاقترضى أثره في عدم الطعن على العرب ؛ فهذا ابن أبي اسحق (١٤١) يسمع قول الفرزدق في مدحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منشور
على عمائمنا بلقنى وارجلنا على زواحف تزجى مخها ريسر
فيقول له : (١٤٢) « أسأت انما هي « ريزُ » ؛ وكذلك قياس النحو في هذا الموضع » . وقيل انه قال له : (١٤٣) « أسأت ، موضعها رفع ، وان رفعتُ أئويتُ » . أما يونس فلم يكتف بتجويز قول الفرزدق وانما ذهب الى استجادته فقال : (١٤٤) « وهذا جيد » . او استحسنته فقال : « (١٤٥) والذي قال حسن جائز » .

ويسمع أبو عمرو ويونس قول الفرزدق :

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا أو مجرف
فيقفان حائرين امام الوجه الذي رفع الفرزدق عن اساسه «مجرف»
من غير أن يفكرا بتخطئته أو الطعن عليه ، ويحاولان أن يجدا تخریجاً

١٤١ - الشعر والشعراء (المقنمة) . والبيتان في ديوان الفرزدق ج ٢١٢/١ .

١٤٢ - طبقات فحول الشعراء ؛ ص ١٧ (مطبعة المدني - القاهرة) . طبقات النحويين واللغويين ص ٣٢ .

١٤٣ - خزانة الادب ج ٢٣٨/١ .

١٤٤ - المصدر السابق : ٢٣٨/١ وقد اورد هذا الكتاب (٢٣٩/١) أن علي بن هبزة البصري كان يقول في كتاب الشبيهات على اخلاط الرواة : والخفى في « ريز » جيد ، وتقديره على زواحف ريز مخها تزجى .

١٤٥ - طبقات فحول الشعراء ١٧/١ (مطبعة المدني - القاهرة) .

فلم يعثرا ، فيقول أبو عمرو : (١٤٦) «لا أعرف لها وجها ، وكان يونس لا يعرف لها وجها ، قلت ليونس : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يابسه ، فقال : لا ، كان ينشدها على الرفع وأنشد فيها رؤبة على الرفع » .

ولما جاء الكسائي الى البصرة تتلمذ على أبي عمرو بن العلاء ، وتأثر به تأثرا ملحوظا، ويقال انه بقي ملازما له (١٤٧) « نحو سبع عشرة سنة » ، وتلمذ بعد ذلك على يونس بن حبيب تلميذ أبي عمرو ، وكان يونس يثني عليه في مجلسه بالبصرة ويشجعه ، فقد سئل (١٤٨) بحضرته عن توجيه رفع الخمر في بيت الفرزدق : (١٤٩)

غداة أحلت لابن أصرم طعنة^١ حصين عبيطات السدائف والخمر^٢

ف قيل للكسائي : على أي شيء رفعت ؟ فقال : اضمرت فعلا ، كانه « وحلت لي الخمر » ، فقال يونس : ما أحسن والله ما وجهته — وفي رواية أخرى (١٥٠) انه قال : اشهد ان الذين رأسوك رأسوك على حق — غير اني سمعت الفرزدق ينشده :

غداة أحلت لابن أصرم ضربة^٣ حصين عبيطات السدائف والخمر^٤

جعل الفاعل مفعولا ، كما قال الحطيئة (١٥١) :

فلما خشيت الهون والعير^٥ ممسك^٦ على رغبه ما أمسك الجبل حائر^٧

والقصيدة على الرفع، جعل الفاعل مفعولا ، فقال الكسائي : هذا

١٤٦ — المصدر نفسه ج ١/٢١ . وانظر : الموشح ص ٩٢ والبيت : ديوان الفرزدق ج ٢/٢٦ .

١٤٧ — الاقتراح ، ص ٨٥ .

١٤٨ — مجالس العلماء : مجلس ١٠ .

١٤٩ — ديوان الفرزدق ج ١/٢٥٤ .

١٥٠ — تاريخ بغداد ج ١١/٤١٠ .

١٥١ — ديوان الكسائي ص ١٠٢ .

١٥١ — ديوان الحطيئة ص ١٨٢ (تحقيق نعمان طه الطبعة الاولى سنة ١٩٥٨) .

١٥٢ — ديوان الفرزدق ج ٢/٢٦ .

على هذا وجه .

وكان يونس يتجنب تخطئة الكسائي ، ويردّ قوله ردّاً لطيفاً جميلاً ؛
فما هو يسأل (١٥٢) في مجلسه إن ألق : ما مثاله من الفعل ؟ فيقول :
افعل، فيقول يونس له : استحييت لك يا شيخ ! والظاهر عندنا من أمر ألق
انه فُوعِل من قولهم : ألق الرجل فهو مألوق . أما ابن أبي عيينة الذي سأل
هذا السؤال فيسارع (١٥٣) بعد الاجابة الى القول : خطأ والله .

ليس هذا فحسب، وإنما كان يونس يغضب الغضب كله اذا ما أحس
ان أحدا في مجلسه حاول ان يستثيره أو يعمد الى تخطئته، ويقول : (١٥٤)
تؤذون جليسننا ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين .

وقد توطلدت العلاقة بين يونس والكسائي ، وتعمقت بعد هذا
السلوك الذي كان له اجمل الاثر في نفس الكسائي، ولا سيما بعد المسائل
النحوية التي جرت بينهما وأقر له يونس فيها ، وكافاه على ذلك بأن صدره
موضعه .

ولم يكن الكسائي الكوفي الوحيد الذي درس على يونس ، وإنما
درس عليه الفراء أيضاً وكان الكوفيون — كما يبدو من رواية أبي الطيب
اللغوي — يفتخرون بأنه اخذ عن يونس فأكثر؛ قال : (١٥٥) « وأهل الكوفة
يدّعون أنه استكثر منه ، وأهل البصرة يدفمون ذلك » وهذه الرواية إن
دلّت على شيء فانما تدلّ على مدى المكانة التي كان يونس يمثلها في ذهن
الكوفيين وفكرهم .

١٥٢ — الخصائص ج ٢/٢٩١ .

١٥٣ — مجالس العلماء مجلس ١١٩ .

١٥٤ — المصدر نفسه مجلس ١١٤ .

١٥٥ — مراتب التحويين ص ٨٦ .

وقد كان عقل الكسائي متنبها ويقظا لكل ما كان يسمعه عن يونس
من أجل ان يأخذ به ويقتفي أثره ؛ فهذا يونس بن حبيب يسأل (١٥٦)
والكسائي حاضر : لِمَ صارت « حتى » تنصب الأفعال المستقبلية ؟ فيقول:
هكذا خلقت . ويسأل (١٥٧) الكسائي فيما بعد في مجلس يونس عن
قولهم : لأضربن أيهم يقوم ، لم لا يقال : أيهم ، فيقول أيُّ ، هكذا خلقت .

كل ذلك دفع الكسائي والكوفيين بعده الى ان يتبعوا الاتجاه النحوي
الثاني الذي سار فيه أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وهو الاتجاه الذي
يعظم لغات العرب ويقبل بتجويزها مهما تباعدت ، من غير طعن أو تلحين ؛
أما البصريون فواصلوا السير على الاتجاه الأول ، اتجاه ابن أبي اسحق
وعيسى بن عمر وهو الاتجاه الذي اتسم بالتشدد في القياس وتأويل ما
يخالفه ، أو تشذيذه ، أو تخطئته اذا لم يكن بديل للتخطئة .

وقد اتبع الكوفيون يونس في آراء كثيرة خالف فيها البصريين ، منها
تجريزه (١٥٨) أن تلقى علامة الندبة على الصفة نحو قولك « وازيد
الظريفاه » بينما ذهب الخليل (١٥٩) الى أن هذا خطأ .

وتبعوه في جواز (١٦٠) ادخال نون التوكيد الخفيفة على فعل الاثنين
وجماعة النسوة ، نحو « افعلان » و « افعلانان » بالنون الخفيفة ؛ وأيد ابن
جنى هذا المذهب قائلاً : « وليس ذلك ... بالمتنع في الحس ، وان كان

١٥٦ - طبقات النحويين واللغويين ص ١٧٧ .

١٥٧ - مجالس العلماء مجلس ١١٤ . وانظر : الخصائص ج ٣ / ٢٩٢ .
وأوضح المسالك ج ١ / ١٠٩ .

١٥٨ - انظر : الانصاف مسألة ٥٢ ، شرح الفصل ج ٢ / ١٤ ، حاشية الصبان ج ٢ / ١٦٩
والرأي في الاصول ج ١ / ٤٣٦ منسوب الى يونس وهذه .

١٥٩ - الكتاب ١ / ٢٢٦ .

١٦٠ - انظر الانصاف مسألة ٩٤ . شرح الاشموني ج ٢ / ٥٠٢ . شرح التصريح ج ٢ / ٢٠٧ .

غيره أسوغ فيه منه من قبل أن الالف اذا أُشْبِعَ مَدَّها صار ذلك كالحركة فيها . أما البصريون فذهبوا (١٦١) الى أنه لا يجوز ادخالها في هذين الموضوعين .

وتبعوه في عدم (١٦٢) ضرورة عود الخافض .

وتبعوه في ان « اي » « اي » (١٦٣) في نحو : لأضربن ايُّهم افضل ، معرب ، ولكنه يقول إنه مرفوع بالابتداء و « افضل » خبره ، والفعل معلق عن العمل . اما هم فيقولون إنه مفعول به منصوب ، بينما يرى سيبويه أنه مبني على الضم .

وتبعوه في ان الذي (١٦٤) يقع مصدرا ، كما ورد في قوله تعالى : (١٦٥) (وخضتم كالذي خاضوا) أي خاضوا فيه ، وقوله (١٦٦) (ذلك الذي يبشر عباده) اي يبشر الله به عباده .

وتبعوه في ان « وحده » (١٦٧) منصوية على الظرف ؛ قال سيبويه (١٦٨) وزعم يونس ان وحده بمنزلة عنده .

وبناء على كل ما مضى من أقوال وأدلة وآراء حول اثر يونس نسي الكسائي والكوفيين فانني استطيع القول إن تأثير يونس في هؤلاء كان

١٦١ - انظر : الانصاف مسألة ٩٤ .

١٦٢ - انظر : شرح التصريح ج ١٥١/٢ ، شرح الاشموني ج ٤٢٩/٢ .

١٦٣ - انظر الكتاب ج ٣٩٨/٢ - ٤٠١ . والانصاف مسألة ١٠٢ ، وجيع الهوا مع ج ١ / ٣١٣ .

١٦٤ - مفي اللبيب ص ٧٠٩ ، وانظر نسبة الراي الى يونس في : اعراب القرآن ج ٢١٥/١ .

١٦٥ - التوبة آية ٦٩ .

١٦٦ - الشورى آية ٢٣ .

١٦٧ - حاشية الشيخ ياسين في شرح التصريح ج ٢/١ .

١٦٨ - الكتاب ج ٣٧٧/١ .

واضحا شديد الوضوح وبارزا ، بل وبناء على كل ما مضى يخيل الي أنني
استطيع القول أن ابن حبيب النحوي كان مؤسسا بارزا من مؤسسي
المدرسة الكوفية، أو على الأقل كان مساهما مساهمة فعالة في نشأة هذه
المدرسة ؛ فهو الذي فتح لها مجال السير في الاتجاه المذكور الذي كان يتجهه
مع أستاذه ، من غير أن يتعارض هذا القول مع بصريته ؛ وبالتالي فلا
استطيع أن اعده ممن وضعوا النواة الأولى للمدرسة البغدادية، كما ادعى
(١٦٩) الدكتور أحمد مكي الأنصاري * ولعل قرب يونس من الكوفيين
هو الذي دفع الأنصاري الى ذلك . فالتقاء يونس بالكوفيين وأثره فيهم كان
قبل أن تنشأ المدرسة البغدادية وتقف على قدميها ؛ ونواة المدرسة
البغدادية لا يمكن أن تكون إلا بعد وجود المدرستين البصرية والكوفية، وهي
المعروفة بأنها اثبتت (١٧٠) من تمازج المدرستين ، وأنها مدرسة تقوم على
الانتخاب والتوفيق ، والنفوذ الى بعض ما يمكن النفاذ اليه من آراء
جديدة .

د. محمود حسني محمود

١٦٩ - أبو زكريا الفراء ص ٢٦٦ .

١٧٠ - المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ص ١١٦ .

المصادر

ابن الاباري

١ - الانصاف - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ط الرابعة
١٩٦١ .

٢ - نزعة الالباء - تحقيق . ابراهيم السامرائي . الطبعة الثانية . بغداد . ١٩٧٠ .

ابن جني

٢ - الخصائص - تحقيق محمد علي النجار . دار الهدى . الطبعة الثانية . بيروت .

٤ - المحتسب - تحقيق علي النجدي ناصف . القاهرة ١٢٨٦ هـ .

ابن خلكان

٥ - وفيات الاعيان - تحقيق د. احسان عباس . دار صادر - بيروت .

ابن السراج

٦ - الاصول في النحو - تحقيق د. عبد السلام الفنلي . مطبعة الاعظمي ، بغداد

١٩٧٢ م .

ابن الشجري

٧ - امالي ابن الشجري . حيدرآباد . الطبعة الاولى ١٢٤٩ هـ .

ابن عقيل

٨ - شرح ابن عقيل . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ، ط

الثانية عشرة ١٩٦١ م .

ابن العماد

٩ - شذرات الذهب - بيروت .

ابن قتيبة

١٠ - الشعر والشعراء .

ابن التميم

١١ - الفهرست . مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

ابن دثام

١٢ - أوضح المسالك . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار احياء التراث

العربي . بيروت . الطبعة الخامسة ١٩٦٦ م .

١٣ - مخني اللبيب . تحقيق د. مازن مبارك . مراجعة الاساذ سعيد الانفاني بيروت .

الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

ابن يمشى

١٤ - شرح المفصل . المطبعة المتحرية بدمر .

ابو الطيب اللغوي

١٥ - مراتب التحوين - تحقيق أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٩٧٤ .

ابو الفداء

١٦ - البداية والنهاية - مطبعة السعادة بدمر .

الازهري

١٧ - شرح التصريح على التوضيح . دار احياء الكتب العربية .

الاشموني

- ١٨ — شرح الاشموني — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة
بمصر . الطبعة الاولى ١٩٥٥ .

الاعشى

- ١٩ — ديوان الاعشى — تحقيق د. محمد حسين . المطبعة النموذجية .

الانصاري : د. احمد مكي الانصاري

- ٢٠ — أبو زكريا الفراء . القاهرة ١٩٦٤ .

بروكلمان

- ٢١ — تاريخ الادب العربي . دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية .

البغدادي

- ٢٢ — خزانة الادب . تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي .
٢٣ — تاريخ بغداد . مطبعة السعادة ١٩٣١ .

الجاحظ

- ٢٤ — الحيوان — تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي .
٢٥ — البيان والتبيين — تحقيق فوزي عطوي . بيروت .

الجمحي

- ٢٦ — طبقات فحول الشعراء — تحقيق محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة
١٩٧٤ ، دار المعارف ١٩٥٢ م .

الحديثي . خديجة الحديثي

٢٧ — كتاب سيويه وشروحه . بغداد . الطبعة الاولى ١٩٦٧ .

حسني . د. محمود حسني

٢٨ — المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي . رسالة دكتوراة مخطوطة في مكتبة

الجامعة الاردنية قسم المخطوطات وفي مكتبة جامعة القاهرة — كلية الاداب

ضمن الرسائل الجامعية .

الخطينة

٢٩ — ديوان الخطينة — تحقيق د. نعمان طه . الطبعة الاولى ١٩٥٨ .

الحموي — ياقوت الحموي

٣٠ — معجم الادباء — مطبعة دار المأمون . الطبعة الاخيرة .

٣١ — معجم البلدان . بيروت ١٩٥٦ .

الداودي . الحافظ شمس الدين

٣٢ — طبقات المفسرين — تحقيق علي محمد عمر . مطبعة الاستقلال الكبرى . الطبعة

الاولى ١٩٧٢ م .

الرضي

٣٣ — شرح الكافية . الشركة الصحافية النمانية . ١٣١ هـ .

الزيدي

٣٤ — طبقات النحويين والمفويين . تحقيق أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف بمصر .

الزجاج

٣٥ — اعراب القرآن — تحقيق ابراهيم الابباري . القاهرة ١٩٦٣ م .

الزجاجي

- ٣٦ - مجالس العلماء - تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٢ م .

الزمخشري

- ٣٧ - المنصل . دار الجيل . الطبعة الثانية .

سيوييه

- ٣٨ - الكتاب - تحقيق عبد السلام هارون

ج ١ دار القلم ١٩٦٦

ج ٢ دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٨ م .

ج ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م

ج ٤ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م .

السمراني

- ٣٩ - اخبار النحويين البصريين - تحقيق طه الزيني . الطبعة الاولى ١٩٥٥ م .

السيوطي

٤٠ - الاشباه والنظائر - تحقيق طه سعد . طبعة جديدة ١٩٧٥ م .

٤١ - الاقتراح في اصول النحو . حيدرآباد . الطبعة الثانية ١٣٥٩ هـ .

٤٢ - بغية الوعاة . تحقيق أبو الفضل ابراهيم . ط الاولى ١٩٦٥ .

٤٣ - هجج الهوامع - تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٧٥ م .

الصبان

- ٤٤ - هاشية الصبان . دار احياء الكتب العربية .

ضيف . د . شوقي ضيف

٤٥ — المدارس النحوية . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .

عزام . عبد الرحمن عزام

٤٦ — بطل الأبطال . مطبعة الحلبي . الطبعة الأولى ١٩٢٨ م .

عيد . د . محمد عيد

٤٧ — الرواية والاستشهاد باللغة . القاهرة ١٩٧٢ م .

الفرزدق

٤٨ — ديوان الفرزدق . دار صادر . بيروت ١٩٦٠ م .

القنطري

٤٩ — أنباء الرواة — تحقيق أبو الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب . القاهرة ١٩٧٢ م .

المبرد

٥٠ — الكامل في الأدب — تحقيق د. زكي مبارك . مطبعة الحلبي الطبعة الأولى ١٩٢٧ م .

المرزباني

٥١ — الموشح . المطبعة السلفية . القاهرة الطبعة الثانية ١٢٨٥ هـ .

ناصر . علي النجدي ناصر

٥٢ — سيبويه (مأم النحاة) .

ياسين

٥٢ — هاشمية الشيخ ياسين (ضمن شرح التصريح للزهري — دار إحياء الكتب

العربية) .